آفَاتُ اللِّسَانِ

(١)

خُطُورَةُ الْكَلِمَةِ

للشيخ / ندا أبو أحمد

(آفـــات اللســـان)

تمهيد

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضل له ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب :٧٠-٧١]

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله . تعالى . وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

خطـــورة الـكـلـمـة

إن اللسان من نِعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جِرْمُهُ[1]، عظيمٌ طاعتُه وجُرْمُهُ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان.

ومَن أطلق هذا اللسان وأرخى له العنان؛ سلك به الشيطان في كل ميدان؛ وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار.

ولا يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله" اهـ (بتصرف واختصار من إحياء علوم الدين:١٠٨/٣)

ومع أن اللسان لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، إلا أن كل حرف منه مسطور

قال تعالى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ [آل عمران:١٨١]

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم:٧٩-٨٠]

وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]،

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤]

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠]

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]

وقال تعالى: ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ . . . ﴾ [المجادلة:٦]

---

(١) جِرْم: الجِرْمُ: الجسد.

وقال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]

معنى ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾: يعنى مراقب معد لذلك، لا يترك كلمة تفلت.

يقول ابن كثير ﷺ ***في تفسير قوله تعالى:*** ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]

"اختلف أهل العلم: **هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟**

فمن قائل: يكتب ما فيه ثواب وعقاب فقط (وهو قول ابن عباس)

يقول ابن عباس ﷺ ***في قوله تعالى:*** ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

قال: "يكتب كل ما يتكلَّم به من خير أو شر، حتى أنه يكتب قوله: (أكلت) و(شربت) و(ذهبت) و(جئت) و(رأيت)، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، **وذلك قوله:** ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد:٣٩]

أما القول الثاني: إن الملك يكتب كل شيء من الكلام (وهو قول الحسن وقتادة).

ثم قال ابن كثير ﷺ: "وظاهر الآية يدل عليه قول الحسن وقتادة"

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ ***قال: قال رسول الله*** ﷺ:

"إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يُلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم"

وعند الإمام أحمد من حديث علقمة عن أبي عبد الرحمن بلال بن الحارث المُزَنِيّ ﷺ ***قال:***

قال رسول الله ﷺ: **"إن الرجل ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما كان يظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت؛ يكتبُ الله ﷻ لهُ بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سُخط الله، ما كان يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغَتْ؛ يكتب الله ﷻ له بها سُخْطَهُ إلى يوم يلقاهُ".**

فكان علقمة يقول: *"كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث"* (صحيح الجامع:١٦١٩)،(الصحيحة:٨٨٨)

. وتلا الحسن البصري قول الله تعالى: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق:١٧]، ***فقال:*** *"يا ابن آدم بسطتْ لك صحيفة، ووكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طُويتْ صحيفتك، وجُعلتْ في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة"*، **فعند ذلك يقول تعالى:** ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]،

ثم قال: "عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك".

ـ وقال مجاهد ﷺ كما في كتاب "الزهد لهناد(٢/٥٣٥):

"ما من شيء يتكلم به العبد إلا أُحْصِيَ عليه، حتى أنينه في مرضه"

ـ وذكر ابن كثير ﷺ في "البداية والنهاية"(١١/٥٤) عن الإمام أحمد:

"إنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات" فرحمة الله عليه.

قال الإمام المحقق ابن القيم الجوزية ﷺ:

"ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفيظ والاحتزاز من أكل الحرام، والظلم، والزنا، والسرقة، وشُرب الخمر، ومن النظر المحرم... وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ممَّا بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري [1] *في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول"*. اهـ

(الداء والدواء: صـ١٨٧)

ـ وقد كان السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ يحاسب أحدهم نفسه في قوله:

"يوم حار، ويوم بارد".

ولقد رُؤيَ بعض الأكابر من أهل العلم في النوم، فسُئل عن حاله؟ فقال:

"أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث!، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي".

(الداء والدواء: صـ٢٨٠)

فليُعْلَم أن أيسر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها على العبد.

وليُعْلَم أن اللسان من أخطر ما خلق الله في جسم الإنسان

ورُوِيَ عن أم حبيبة ﷺ زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر لله ﷻ"

(أخرجه الترمذي وابن ماجه بسند فيه مقال ضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه:٨٦١)

---

(١) يقال فَرَى الجلد: يعني مزَّقه.

وأخرج الطبراني في "الكبير" عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"إنك لن تزال سالماً ما سكتَّ، فإذا تكلمت كُتِبَ لك أو عليك"

(صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

وأخرج الإمام مالك وأبو يعلى عن أسلم مولى عمر قال:

"دخل عُمر يوماً على أبي بكر ﷺ وهو يجبذ لسانه، فقال عمر: مَهْ غفر الله لك، فقال له أبو بكر: إن هذا أوردني شر الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: "ليس شيء من الجسد إلا وهو يشكو ذَرَبَ اللسان [1]**"**

- ***وفي رواية:*** **"ليس شيءٌ من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان من حِدَّته"** (الصحيحة:٥٣٥)

- ***وعن أبي وائل عن عبد الله ﷺ:***

"أنه ارتقى الصفا [2] ***فأخذ بلسانه وقال: "يا لسانُ!، قُل خيراً تغنم*** [3]***، أو اسكت عن شرٍّ تسلم*** [4]***، من قبل أن تندم"، قالوا: "يا أبا عبد الرحمن، هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال: "لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أكثر خطايا ابن آدم في لسانه"***

(رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في الصحيحة:٥٣٤)

- ***يقول صاحب كتاب "تسلية أهل المصائب" (ص١٩٢):***

"اللسان لا تؤمن غائلته، وخطره عظيم، ولسهولة حركته وسرعة إطلاقه قد بُلي أكثر الناس في زماننا بآفاته التي هي فاكهة وسرور مجالسهم: كالغيبة، والنميمة، والكذب، والمراء، والجدل، والخوض في الباطل، والخصومات، وفضول الكلام، والتحريف والزيادة والنقصان، وتزكية النفس تصريحاً وتعريضاً، وحكاية كلام الناس، والطعن على ما يبغضه، وتزكية مَن يحبه، وهتك المستورات... ونحو ذلك، فيتفق قوة الداعي وسرعة حركة اللسان؛ فيضعف الصبر، ***ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ:*** **"امسك عليك لسانك"**. اهـ

---

(١) ذَرَبَ اللسان: فحشه وسلاطته ، وفسادُ مَنْطِقِه، من قولهم: ذَرِبَ لسانه: إذا كان حادَّ اللسان، لا يبالي ما قال.

(٢) ارتقى الصفا: أي صعد جبل الصفا.

(٣) قُل خيراً تغنم: أي تكسب خيراً، وتجني فائدة.

(٤) اسكُتْ عن شر تسلم: أي تنجو من الوقوع فيه.

- يقول فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ﷾ - مُبيناً مسئولية الكلمة وخطرها-:

"إن جارحة اللسان الناطق بالكلام المتواطئ عليه، أساس في الحياة والتعايش ديناً ودنيا، فبكلمة التوحيد يدخل المرء في مِلَّة الإسلام، وبنقضها يخرج منها، وبين ذلك مراحل انتظمت أبواب الشريعة، فلو نظرت إلى الكلام وما بني عليه من أحكام لوجدت من ذلك عجباً في: الطهارة، الصلوات، وسائر أركان الإسلام، والجهاد، والبيوع، والنكاح، والطلاق، والجنايات، والحدود، والقضاء...، بل أُفردت أبواب في الفقيهات كلها لما تلفظ به هذه الأداة: (اللسان)، في أبواب: القذف، الردة . والإيمان، والنذور، والشهادات، والإقرار، وفي أصل الأصول: (التوحيد) يدور عليه البحث والتأليف، فكم من كلامٍ أوجب ردة فقتلاً، أو أوجب قذفاً فجلداً، أو أوجب كفارات، أو نزعت بسببه حقوق فردت مظالم إلى أهلها، أو إقرار أوجب بمفرده حكماً، وإذا قالوا: "إقرار المرء على نفسه أقوى البيِّنات"، وهكذا في مناهج الشريعة المباركة الغراء، ولهذا تكاثرت نصوص الوحيين الشريفين في تعظيم شأن اللسان ترغيباً وترهيباً، وأفرد العلماء في جمع غفير من مفرداته المؤلفات، ففي الترغيب: الدعوة إلى الله علم بصيرة، ونشر العلم بالدرس، وفضل الصدق، وكلمة الحق...، وفي الترهيب: عن الغيبة، والنميمة، والكذب، وآفات اللسان الأخرى" اهـ **(تصنيف الناس بين الظن واليقين: ص٢٠)**

• إذا استقام اللسان استقامت جوارح الإنسان

أخرج الترمذي وابن خزيمة عن أبي سعيد الخدري ﷺ ***أن النبي*** ﷺ ***قال:*** **"إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان[1] – *وفي رواية:* "تُفكِّر اللسان"– فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا"** (صحيح الجامع:٣٥١)

وأخرج الإمام أحمد وابن أبي الدنيا عن أنس ﷺ ***قال: قال رسول الله*** ﷺ**:**

"لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجلٌ لا يأمَنُ جارُهُ بوائقه [2]" (السلسلة الصحيحة: ٨٢٢)

– ***يقول عليٌّ*** ﷺ**:** "اللسان قوام البدن، فإذا استقام استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان، لم يقم له جارحة" (الصمت لابن أبي الدنيا: رقم "٥٨"، ص٦٩)

– ***وعن يونس بن عبيد*** ﷺ ***قال:*** "ما من الناس أحدٌ لسانه منه على بالٍ، إلا رأيتُ صلاح ذلك في سائر عمله" (الصمت لابن أبي الدنيا: رقم"٦٥٣")

وعنه أيضاً أنه قال: "خصلتان إذا صلحتا من العبد، صلح ما سواهما: صلاته ولسانه"
(سير أعلام النبلاء: ٢٩٣/٦)

ويقول أيضاً ﷺ**:** "لا تجد في البر شيئاً واحداً يتبعه البر كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل يكثر الصيام، ويفطر على الحرام، ويقوم الليل، ويشهد بالزور بالنهار" – وذكر يونس أشياء نحو هذا – ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عمله أبداً" (سير أعلام النبلاء:٢٩١/٦)

– فاستقامة اللسان من أعظم أركان الاستقامة، لأنها إذا يُسِّرت للإنسان فتحت له أبواب البر، وأغلقت دونه أبواب الفجور، ***ولذلك لما أوصى النبي*** ﷺ ***سفيان بن عبد الله الثقفي*** ﷺ ***فقال له:*** **"قل آمنت بالله ثم استقم، فسأله سفيان: ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا"** (رواه مسلم والترمذي)، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن زلل اللسان من أعظم القوادح في الاستقامة.

– ***وعن يحيى بن أبي كثير*** ﷺ ***قال:*** "خصلتان إذا رأيتهما في الرجل، فاعلم أن ما وراءهما خير منهما: إذا كان حابساً للسانه، يُحافظ على صلاته" (الصمت: رقم"٥٦٤")

وعنه ﷺ ***أنه قال:*** "ما صَحَّ منطق رجلٍ قط، إلا صَحَّ ما وراء ذلك" (الزهد لابن أبي عاصم: رقم "٥٦"، ص٣٩)

– ***وعن الأوزاعي عن يحيى*** ﷺ ***قال:*** "أثنى رجلٌ على رجلٍ، فقال له بعض السلف: وما علمك به؟ قال: رأيته يتحفَّظُ في مَنْطِقه" (الصمت: رقم "٤١٨")

---

(١) تُكفِّر اللسان: بمعنى تذلُّ له وتخضع، أو هو كناية عن تنزيل الأعضاء له منزلة الكافر بالنعم.
(٢) بوائقه: غوائله وشروره.

خطـــورة اللســـان

١ـ أكثر ما يدخل الناس النار حصائد اللسان:

أخرج الترمذي من حديث معاذ ﷺ قال: "قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه يسير على من يسرَّه الله تعالى عليه، تعبُد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيتَ، ثم قال: ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة [١]، والصدقةُ تُطْفِئُ الخطيئة كما يُطفِئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل[٢]، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]، ثم قال: "ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه [٣]"، قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر [٤] الإسلامُ، وعموده [٥] الصلاةُ، وذروة سنامه الجهادُ، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه [٦]، قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال: "كفَّ عليك هذا"، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك [٧]، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم؟ [٨]"

ـ ***ورواه الطبراني مختصراً وفيه:*** "قلت: يا رسول الله، أكلّ ما نتكلم به يُكتَب علينا؟! قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك، وهل يَكُبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم، إنك لن تزال سالماً ما سكتَّ، فإذا تكلَّمت كُتِب عليك أو لك"

– ***وفي قول النبي ﷺ:*** "وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم"

تشبيه دقيق يبين مدى فصاحة النبي ﷺ ودقته في التعبير.

يقول المباركفوري ﷺ في "تحفة الأحوذي" (٧/ ٣٠٥):

"وفي قول النبي ﷺ: "حصائد ألسنتهم" أي: محصوداتها، شبَّه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع ولا يميِّز بين الرطب واليابس، والجيد والردئ، فكذلك لسان بعض الناس، يتكلَّم بكل نوع من الكلام حسناً وقبيحاً" اهـ

---

(١) الصوم جُنَّة: أي وقاية عن الوقوع في الذنوب والمعاصي والشهوات، أو وقاية من دخول النار.
(٢) جوف الليل: أوسطه.
(٣) ذروة سنامه: أعلاه.
(٤) رأس الأمر، أوله.
(٥) عموده: قوامه وعماده ودعامته.
(٦) ملاك الشيء: قوامه، ونظامه، وما يُعتمد عليه فيه.
(٧) ثَكلتك أمك: فقدتك، من الألفاظ التي جرت على ألسنة العرب ولا يقصدون بها الدعاء، كقولهم: "تربت يداك، أو لا أبا لك، أو قاتلك الله... وهكذا"
(٨) حصائدُ ألسنتهم: أي ما يقتطعون من الكلام الذي لا خير، وشبَّه النبي ﷺ اللسان بالمنجل الذي يحصد النافع والضار، من غير تفريق، فكذلك فكذلك اللسان.

قال الحافظ ابن رجب ﷺ معلّقاً على قول النبي ﷺ:

"**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى، فأخذ بلسانه، فقال: كف عليك هذا**" هذا يدل على أن كفَّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن مَن ملك لسانه، فقد ملك أمره، وأحكمه وضبطه" اهـ

(جامع العلوم والحكم: ١٤٦/٢)

وكما قيل: **واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب**

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"**أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**" **(الصحيحة: ٥٣٤)**

وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال:

"**سُئل النبي ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناس الجنة؟ قال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسُئِل عن أكثر ما يُدخِل الناس النار؟ فقال: الأجوفان: الفم والفرج**" **(حسنه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ١٩٤)**

لذا كان النبي ﷺ يقول كما عند الترمذي: "**وأعوذ بك من شر لساني**"

(صححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٧٧٥)

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: "**قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تتصدق بالأثوار – أي القطع – من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: هي في الجنة**"

(صححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب": ٢٥٦٠)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن علقمة بن وقاص قال: "**مَرَّ به رجلٌ له شرف، فقال له علقمة: إن لك رحمًا، وإن لك حقا، وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء، وتتكلَّم عندهم بما شاء الله أن تتكلَّم به، وإني سمعت بلال بن الحارث المزنيَّ، صاحبَ رسول الله ﷺ، يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكُم ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله، ما يظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت، فيكتبُ الله ﷻ لهُ بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغَتْ، فيكتب الله ﷻ عليه بها سُخْطَهُ إلى يوم يلقاهُ**".

قال علقمة: **فانظر، ويحك! ماذا تقول، وماذا تكلَّمُ به، فَرُبَّ كلام، قد منعني أن أتكلم به، ما سمعت من بلال بن الحارث**".

(صححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٣٥٨/٢، رقم ٣٢٠٥)

- **من خلال ما سبق يتبيَّن لنا ضرورة التَّفكُّر قبل التَلَفُّظ:**

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"... وإن الرجل ليتكلَّمُ بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأساً – *وفي رواية:* "لا يُلقي لها بالاً [(١)]؛ فيهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً"

يتبين من خلال هذا الحديث: أنه ينبغي على الإنسان أن يَتَفكَّر في الكلمة قبل أن يَتَلَفَّظ بها

– قال النووي ﷺ كما في كتابه "الأذكار":

"في هذا الحديث حث على حفظ اللسان، فينبغي لمَن أراد أن ينطق أن يتدبَّر ما يقول قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلَّم، وإلا أمسك عنه؛ لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء". اهـ بتصرف

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة ما يتبيَّن فيها[(٢)]؛ يهوي بها في النار، أبعدَ ما بين المشرق والمغرب"

وعند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة [ما يتبيَّن فيها] ؛ يزلُّ بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب"
(الصحيحة: ٥٤٠)

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أيضاً عن النبي ﷺ قال:

"إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلمُ بالكلمة من سخطِ الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"

روى أبو الشيخ بسند فيه مقال من حديث أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

إنَّ الرَّجلَ ليتحدَّثُ بالحديثِ ما يُريدُ به سوءًا إلَّا ليُضحِكَ به القومَ يَهوي به أبعدَ من السَّماءِ"

---

(١) لا يُلقي لها بالاً: أي لا يتأملها بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئاً، وهي من نحو قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] (فتح الباري:١١/٣١١)

(٢) ما يتبيَّن فيها: يعني يتفكر أنها خيرٌ أم لا (أفاده النووي ﷺ)، وقال الحافظ في "الفتح"(١١/٣١٧): أي لا يُثبتها بفكره ولا يتأمَّلُها. اهـ و"ما" الأولى نافية، و"ما" الثانية موصولة أو موصوفة.

قال ابن عبد البر ﷺ: "الكلمة التي يهوي صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند سلطان جائر... *زاد ابن بطال:* بالبغي أو بالسعي على المسلم، فتكون سبباً لهلاكه، وإن لم يرد القائل ذلك، *وقيل:* "هي الكلمة عند ذي السلطان يرضيه بها بسخط الله، *قال ابن التين:* "هذا هو الغالب، وربما كانت عند غير ذي السلطان ممن يتأتى منه ذلك، *ونقل عن ابن وهب:* "أن المراد بها التلفُّظ بالسوء والفحش، *وقال القاضي عياض:* "يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنا والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك". اهـ (بتصرف من فتح الباري:١١/٣١١)

. وفى رواية لأبي الشيخ أيضاً من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا الْقَوْمَ ، فَيَسْقُطُ بِهَا أَبْعَدَ مِنَ السَّمَاءِ ، أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا أَصْحَابَهُ ، فَيَسْخَطُ[1] اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ ، لَا يَرْضَى عَنْهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ"

قال بعض الصحابة لجاريته يوماً: "هاتي السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة، خرجت مني بخير خطام ولا زمام" (الداء والدواء لابن القيم: ص٢٧٦)

وكان الحسن البصري ﷺ يقول:

"كانوا يقولون: إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه".

- وكان الحسن يقول أيضاً: "ما عقل دينه مَن لم يحفظ لسانه" (الإحياء:٣/١٢٠)

وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار:

"يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم" (الإحياء:٣/١٢٠)

وقال سلمة بن دينار: "ينبغي للمؤمن أن يكون أشد حفظاً للسانه منه لموضع قدمه"

(صفة الصفوة: ٢/٧٥)

عن يعلى بن عبيد قال: "سمعت سفيان الثوري يقول: "لو كان معكم مَن يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قلنا: لا، قال: فإن معكم مَن يرفع الحديث" (حلية الأولياء:٧/٧٠)

وعن حاتم قال:

"لو أن صاحب خبرٍ جلس إليك، لكنت تتحرز منه، وكلامك يعرض على الله فلا تحترز"

عن بكر بن ماعز أن الربيع بن خثيم أتته ابنة له، فقالت: "يا أبتاه أذهبُ ألعبُ؟ فلما أكثرت عليه، قال بعض جلسائه: لو أمرتها فذهبت؟ قال: لا يُكتَب عليّ اليوم أني آمرها تلعب"

(أخرجه ابن سعد: (٦/١٨٨)، وهناد في "الزهد": ٢/٥٣٨)

(١) سَخِطَ أي: غضب، وأَسْخَطَه: أَغْضَبَه .

٢ ـ ومن حصائد اللسان ما يحبط الأعمال:

ودليل ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك".

- *وهناك حديث أخر لأبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة ﷺ:*

"تكلَّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته" (رواه الإمام أحمد وأبو داود)

- *وأخرج ابن أبي الدنيا بسند فيه مقال من حديث أمامة بنت الحكم الغفارية ﷺ قالت:*

"سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرجل ليدنو من الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قيد رمح، فيتكلم بالكلمة فيتباعد منها أبعد من صنعاء [١]".

فلهذا وغيره كان النبي ﷺ أخوف ما يخاف علينا هذا اللسان

(١) فقد أخرج الترمذي من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال:

"قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر اعتصمُ[٢] به، قال: "قل: ربِّيَ اللهُ. ثم استقم، قلتُ: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: "هذا"

(٢) وفي رواية عند ابن حبان أنه قال:

"قلت: يا رسول الله، أي شيء أتقي؟ فأشار بيده إلى لسانه"

(٣) وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن هشام ﷺ أنه قال:

"يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: أملك هذا، وأشار إلى لسانه"

(٤) وأخرج الترمذي وأبو داود عن شَكَل بن حميد ﷺ قال:

"أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، علمني تعوُّذًا أتعوَّذ به، قال: فأخذ بكفي، فقال: قل: "اللهمَّ إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي".

(صححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٧٧٥)

---

(١) ينطق بسخط فتقصيه من الجنة مسافة ما بين المدينة المنورة وصنعاء اليمن.
(٢) اعتصم: أي أتحصن باتباعه.

ولخطورة الأمر كان النبي ﷺ يوصي بحفظ اللسان بل ويأمر بهذا

وصايا الرسول في حفظ اللسان والحث عليه وعظم الجزاء لـمن فعل ذلك

١ ـ أخرج الطبراني والبيهقي بإسناد صحيح من حديث أَسْوَدَ بن أَصْرَمَ المحاربي ﷺ قال:

"قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: أتملك يدك؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي، قال: أتملك لسانك؟ قال: فما أملك إذا لم أملك لساني، قال: فلاَ تبْسُط يَدَكْ إلا إلى خير، ولا تَقُلْ بلسانك إلا معروفاً".

فكل كلام ابن آدم عليه إلا فيما بيَّنه النبي ﷺ.

فقد أخرج ابن ماجه من حديث أم حبيبة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ:

"كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله ﷻ"

(قال الألباني في ضعيف الجامع: "ضعيف")

٢ ـ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب "الصمت" من حديث معاذ ﷺ أنه قال:

"يا رسول الله، أوصني، قال: اعبُد الله كأنك تراه، واعْدُدْ نفسك في الموتى، وإن شئْتَ أنْبَأتُك بما هو أمْلَك بك من هذا كله، قال: "هذا"، وأشار بيده إلى لسانه".

(قال المنذري: "إسناده جيد")

٣ ـ وأخرج الطبراني عن الحارث بن هشام ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ:

"أخبرني بأمرٍ أعتصم به، فقال رسول الله ﷺ املْك عليك هذا، وأشار إلى لسانه"

٤ ـ وأخرج الخرائطي في "مكارم الأخلاق" أن النبي ﷺ قال لمعاذ ﷺ:

"احفظ لسانك ثَكَلَتْك أُمُّك معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم إلا ألسنتهم" (صحيح الجامع:٢٠٥)

٥ ـ وأخرج ابن عساكر عن مالك بن يُخامر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "احفظ لسانك"

(صحيح الجامع:٢٠٤)

ومعنى حفظ اللسان فيبيِّنه ابن القيم ﷺ كما في كتابه "الداء والدواء" (ص١٤١) فيقول:

"وأمَّا اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمة نظر: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسكَ عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه" اهـ

٦. وأخرج الإمام أحمد والطبراني والحاكم من حديث أبي ذر ﷺ قال:

"قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: أوصيك بتقوى الله فإنها زيْنٌ لأمرك كله، قال: قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله ﷻ، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض، قلت: يا رسول الله، زدني، قال: عليك بطول الصمت، فإنه مطردة للشيطان، وعون لكَ علي أمر دينك، قلت: يا رسول الله زدني، قال: إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه، قلت: يا رسول الله زدني، قال: قل الحق وإن كان مراً، قلت: يا رسول الله زدني، قال: لا تخف في الله لومةَ لائم، قلت: يا رسول الله زدني، قال: ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك[1]" (قال الحاكم: "صحيح الإسناد، ولكن ضعفه بعض أهل العلم")

. أخرج البزار والطبراني في "الأوسط" وأبو يعلى والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث أنس ﷺ أنه قال: **"لقي رسول الله ﷺ أبا ذر، فقال: يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين: هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما".**

(قال الحافظ المنذري: رواته ثقات، وضعفه البعض)

. ورواه أبو الشيخ عن أبي ذر ﷺ بلفظ:

"عليك بحُسْن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما "

(صحيح الجامع:٤٠٤٨)

. أخرج الترمذي من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي". (ضعف بعض أهل العلم هذا الحديث، وحسَّنه عبد القادر الأرناؤوط ﷺ)

---

(١) ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك: أي ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذي تعلمه من تقصيرك في حق نفسك، وأنك في حاجة إلى إصلاح النفس، فانشغل بهذا عن ذكر الناس.

. وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن عقبة بن عامر ﷺ قال:

"قلت: يا رسول الله:"ما النجاة [1]؟ قال: أمسِكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك".

(السلسلة الصحيحة: رقم: ٨٩٠)

- وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال:

"جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز، قال: إذا قمت إلى صلاتك، فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس"

(السلسة الصحيحة:٤٠١)

- عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إياك وكل ما يعتذر منه"

(حسنه الألباني في الصحيحة: رقم ٣٥٤، وعزاه إلى الضياء في المختارة)

- وأخرج الإمام أحمد وابن حبان عن البراء بن عازب ﷺ قال:

"جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علّمني عملاً يُدخلني الجَنَّة، فقال له النبي ﷺ: إن كنتَ أقْصرت الخُطبة [2] لقد أعرضتَ المسألة [3]، أعْتِق النَّسَمَة [4]، وفُكَّ الرَّقبة [5]، فإن لم تُطِقْ ذلك، فأطعم الجائع، واسْقِ الظمْآن، وأْمُر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، فإن لم تُطِقْ ذلك، فَكُفَّ لسانك إلا عن الخير"

(صححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب"، وصححه الأرناؤوط كذلك في "تحقيق الإحسان":٢/٩٨)

---

(١) ما النجاة: استفهام عن السلامة من العذاب.

(٢) أقْصرت الخُطبة: أي إن كنتَ أفصحت عن غرضك باختصار، وبلاغة تعبير، وحسن بيان.

(٣) أعرضتَ المسألة: أي أجدت في إظهار طلبك، وأحسنت بياناً.

(٤) النَّسَمَة: النَّفس والروح، أي أعتق ذا روح، وكل دابة فيها روح فهي نسمة، وإنما يريد النفس، ومنه حديث علي: "والذي خلق الحبَّة، وبرأ النَّسَمَة" أي خلق ذات الروح

(٥) فُكَّ الرَّقبة: أي أطْلِقْهَا من الأسر، وأزِلْ عنها أغلال حبسها، وأعْطِها الحرية ونعمة الحياة الكريمة.

جـزاء من حـفـظ لسـانه

• حفظ اللسان علامة على الإيمان والإسلام:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"

- وأخرج البخاري أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"المسلمُ مَن سلمَ المسلمونَ من لسانهِ ويدهِ، والمهاجر[1] مَن هَجَرَ ما نهى اللهُ عنه".

- وحفظ اللسان ليس فقط من الإسلام، بل هو الإسلام نفسه

فقد أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن عَبَسَة ﷺ قال:

"قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أن يُسْلِم قلبك لله ﷻ، وأن يَسْلَم المسلمون من لسانك ويدك..." الحديث

والنبي ﷺ جعل علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه هي سلامة المسلمين من لسانه ويده، والحديث فيه إشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه، فأولى أن يُحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والمسلمات يدخلن في ذلك، والنبي ﷺ خصَّ اللسان واليد بالذكر؛ لأن اللسان هو المعبر عمَّا في النفس وكذا اليد، لأن أكثر الأفعال بها، ويستثنى من ذلك شرعاً تعاطي الضرب باليد في إقامة الحدود والتعاذير على المستحق لذلك.

وفي التعبير باللسان دون القول نكتة، فيدخل فيه مَن أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها من استولى على حق الغير بغير حق.

• حفظ اللسان دليل على سلامة القلب:

وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة حتى يأمنْ جارَه بوائقه". (صححه الألباني في "الأدب المفرد")

- يقول يحيى بن معاذ ﷺ كما في "حلية الأولياء" (١٠/٦٣):

"القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج... وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه"

---

(١) المهاجر: أي التارك، وحقيقة الهجرة تحصل عن هجر ما نهى الله عنه، *قال الحافظ ابن حجر ﷺ في "الفتح":* "وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمَّارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن". اهـ

- **حفظ اللسان سبيل لستر عورة الإنسان:**

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب "الصمت" من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"مَن كفَّ لسانه ستَرَ اللهُ ﷻ عورتَه، ومَن ملك غَضَبَهُ وقاه الله ﷻ عذابه، ومَن اعتذَرَ إلى الله ﷻ قَبِلَ الله عُذرَهُ"

- **حفظ اللسان دليل فضل صاحبه:**

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى ﷺ قال:

"قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟(١) قال: مَن سَلِمَ (٢) المسلمون من لسانه ويده"

قال الخطابي ﷺ: "المراد بأفضل المسلمين" أي من جمع إلى أداء حقوقه تعالي حقوق المسلمين". اهـ

- **حفظ اللسان من أفضل الأعمال:**

أخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: **"سألتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: أن يسلمَ المسلمون من لسانك"**

(صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

- **حفظ اللسان من الشر صدقة:**

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"على كل مسلم صدقة، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يُعين ذا الحاجة الملهوف، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقةٌ"

- **حفظ اللسان سبيل لدخول الجَنَّة:**

فقد أخرج الطبراني في "الأوسط والصغير" من حديث ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"طوبى(٣) لمَن مَلكَ لسانه، ووسِعَهُ بيتُه، وبكى على خطيئته" (صحيح الجامع:٣٩٢٩)

- وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"أَطِب الكلام، وأَفْشِ السلام، وصِلْ الأرحام، وصَلِّ بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام"

---

(١) أفضل: أي أكثر درجة عند الله ﷻ

(٢) سلم: نجا

(٣) طوبى: شجرة في الجنة، يملك ظلها الذي حفظ لسانه من الفحش والبذاءة.

- *وعند الإمام أحمد الترمذي من حديث عبد الله بن سلام ﷺ قال:*

"لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَلَه، وقيل: قد قدم رسول الله... قد قدم رسول الله... قد قدم رسول الله (ثلاثاً)، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبيَّنتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، فكان أول شيء سمعته تكلَّم به، أن قال: يأيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنَّة بسلام"

(الصحيحة:٥٦٩)

- *وأخرج البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*

"مَن يضمن(١) لي ما بين لَحْيَيْه (٢) وما بين فخذيه (٣) أضمن له الجنة"

- *وفي رواية عند الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*

"مَن وقاه الله تعالى شَرَّ مابين لحييه، وشَرَّ ما بين رجليه دخل الجنة" (الصحيحة:٥١٠)

- *وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*

"مَن حفظ ما بين فَقْمَيْهِ(٤) وفخذيه؛ دخل الجنة" *(قال الحافظ في "الفتح"(١١/٣١٦): "إسناده جيد")*

- *وأخرج الإمام أحمد والطبراني وأبو يعلى عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*

"ألا أحدثك بثنتين مَن فعلهما دخل الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: يحفظ الرجل ما بين فَقْمَيْهِ وما بين رجليه"

- *يقول صالح بن جناح ﷺ:*

أقلل كلامـك واستعذ من شَرِّه ... إن البلاء ببعضه مقرون

واحْفَظْ لسانك واحتفظ من غبِّه ... حتى يكون كأنَّه مسجون

وكِّل فؤادك باللســان وقل له: ... إن الكلام عليكما موزون

---

(١) يضمن: من الضمان بمعنى "الوفاء"، بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه، أو الصمت عمَّا لايعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام.
وقال الداووي: "المراد مما بين اللحيين: الفم، فيتناول الأقوال والطعام والشراب، وسائر ما يتأتي من الفم من الفعل، ومن تحفظ من ذلك أمن من الشر كله؛ لأنه لم يبق إلا السمع والبصر .اهـ من كلام الداووي، لكن خفي عليه أنه بقي البطش باليدين، وإنما يحمل الحديث على أن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب، فإذا لم ينطق إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: "دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدين: لسانه وفرجه، فمن وقي شرهما؛ وقي أعظم الشر". اهـ
(٢) لَحييه: بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية، هما العظمان في جانبي الفم، والمراد: بما بينهما، يعني اللسان.
(٣) ما بين فخذيه: أي الفرج.
(٤) ما بين فَقْمَيه: يعني اللسان، والفقمان: بفتح الفاء وإسكان القاف: هما اللحيان.

في الصمت السلامة

لابد أن نعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، ***فقد أخرج الترمذي والإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:***

"مَن صمَتَ نجا" (الصحيحة:٥٢٥)،(صحيح الجامع:٦٣٦٧)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"

وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه الطبراني في "الكبير" عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنك لم تزَلْ سالمًا ما سَكَتَّ، فإذا تكلَّمْتَ كُتِبَ لك أو عليك"

(صححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب")

وأخرج الإمام أحمد عن جابر بن سمرة ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ طويلَ الصمت، قليلَ الضحك"

(صحيح الجامع:٤٨٢٢)

ووصف هند بنُ أبي هالة ﷺ منطقَ رسول الله ﷺ للحسن بن علي ﷺ فقال:

"... كان طويلَ السكوت، لا يتكلَّم في غير حاجة، يفتتح الكلامَ ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فَصْل، لا فضولَ ولا تقصير" (مختصر الشمائل للترمذي: صـ ٢٠)

وسأل الحسين بن علي ﷺ أباه عن مخرجه ﷺ كيف كان يصنع فيه؟ فقال ﷺ:

"كان رسول الله ﷺ يَخْزِن [١] لسانه إلا فيما يعنيه..." (مختصر الشمائل المحمدية: صـ٢٣)

– ***وقال أيضاً:*** "كان ﷺ لا يذم أحداً، ولا يَعيبه، ولا يطلب عورته[٢]، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه"

(مختصر الشمائل المحمدية: صـ٢٥)

– وطول الصمت من أفضل ما يتجمَّل به الخلق

فقد أخرج أبو يعلى عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"عليك بحسن الخُلُق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده: ما تُجمّل الخلائق بمثلهما"

(صحيح الجامع:٩٢٧)

وصدق ابن السكيت حيث قال:

يموت الفتي من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ

فعثرته بلسانه تُذْهب برأسه ... وعثرته بالرِّجْلِ تبرى على مهلِ

(١) يَخْزِن: يحبس.

(٢) لا يَطلب عورته: أي لا يطلب عورة أحد، وهى ما يُستَحْيا منه إذا ظهر، والمعنى: لا يُظهر ما يريد الشخصُ ستره، ويخفيه عن الناس.

الآثـــــار [1]:

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ:

"مَنْ كثُر كلامهُ كثر سَقَطُه [2]، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثُرت ذنوبه كانت النار أولى به"

(الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤١)، (جامع العلوم والحكم: صـ١٦١)

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ:

"والذي لا إله إلا هو، ما على وجه الأرض من شيء أحوج إلى طول سَجْنٍ من لسان"

(أخرجه الإمام أحمد في "الزهد": رقم "١٦٢"، والطبراني)

تَحَفَّظْ من لسانك ليس شيء أحقَّ بطول سجن من لسان

وقال أبو الدرداء ﷺ:

"انصف أُذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أُذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم".

ويقول أنس ﷺ: "لا يتقي الله ﷻ رجلٌ أو أحدٌ حق تقاته حتى يَخْزَن من لسانه"

(ابن ماجه في المقدمة)،(حسن السمت في الصمت:٥٣)

ويقول أنس ﷺ أيضاً: "مَن خزن لسانه ستر الله عورته، ومَن كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه، ومَن اعتذر إلى الله قبل الله عُذره" (رواه البيهقي)

وكان علّي بن أبي طالب ﷺ يقول: "إذا تم العقل نقص الكلام"

ويقول عمرو بن العاص ﷺ: "الكلام كالدواء، إن أقللتَ منه نفع، وإن أكثرت منه قتل"

يقول حسان بن ثابت ﷺ: "كان شداد بن أوس في سفر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: ائتنا بالسُّفْرَة نعبثُ بها، فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلَّمتُ بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطِمُها وأزمها إلا كلمتي هذه فلا تحفظوها عليّ"

وعن أبي الدَّيَّال ﷺ قال:

"تعلَّم الصمتَ كما تتعلَّم الكلامَ، فإن يكن الكلامُ يهديك؛ فإن الصمت يقيك، ولك في الصمت خَصلتان: تأخذ به عِلْمَ مَن هو أعلَم منك، وتدفع به عنك مَن هو أجدلُ منك".

(جامع بيان العلم وفضله:١/٥٥)

---

(١) "بصائر في الفتن" لمحمد بن إسماعيل **المقدم** – حفظه الله-

(٢) سقطُه: الخطأ في القول والفعل.

وقال إبراهيم بن الأشعث ﷺ: "سمعت الفضيل يقول:

"مَن استوحشَ من الوَحْدة، واستأنس بالناس، لم يسلم من الرياء، ولا حجَّ ولا جهادَ أشدُّ من حبس اللسان، وليس أحدٌ أشدَّ غَمًّا ممن لم يحبس لسانه" (سير أعلام النبلاء: ٨/٤٣٦)

وقال الفضيل أيضاً: *"كان بعض أصحابنا يحفظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة"*

(الصمت لابن أبي الدنيا: رقم (٧٤٢)

وقال الفضيل أيضاً: *"خصلتان تُقَسِّيان القلب: كثرةُ الكلام، وكثرةُ الأكل"* . (سير أعلام النبلاء: ٨/٤٤٠)

وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: *"التَّقِي ملجم"*

وقال أبو عبيد ﷺ: *"ما رأيت رجلاً قط أشدَّ تحفُّظاً في منطقِهِ من عمر بن عبد العزيز"*

وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ:

"إذا اغتممت بالسكوت، فتذكر سلامتك من زلل اللسان" (حلية الأولياء: ٨/٢٠).

وقد مرَّ بنا قول ابن السكيت:

يموت الفتي من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ

فعثرته بلسانه تُذْهب برأسه ... وعثرته بالرِّجْلِ تبرى على مهل

وعن مروان بن محمد قال: "قيل لإبراهيم بن أدهم:

"إن فلاناً يتعلَّم النحو، فقال: هو إلى أن يتعلم الصمت أحوجُ" (حلية الأولياء:٨/١٦).

وها هو الإمام القدوة ابن دقيق العيد، محمد بن علّي بن وهب:

"كان حافظاً للسانه، مُقبلاً على شانه، وقَفَ نفسه على المعالي وقصرها، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها، يقول ابن دقيق عن نفسه: "ما تكلمت كلمة، ولا فعلت فِعْلاً إلا وأعددتُ له جواباً بين يدي الله ﷻ" (طبقات الشافعية:٩/٢١٢)

وقال خارجة بن مصعب: *"صَحِبتُ ابن عون ثِنْتي عشرة سنة، فما رأيتُه تكلَّم بكلمة[1] كتبها عليه الكرام الكاتبون"* (الصمت لابن أبي الدنيا: رقم٧٤٢)

(١) تكلَّم بكلمة: أي بكلمة سوء.

وعن الحسن بن حُيي ﷺ قال: "إني لأعرف رجلاً يَعُدُّ كلامه، وكانوا يرون أنه هو"
(الصمت لابن أي الدنيا: رقم٦٣٩)

ويقول الحسن أيضاً ﷺ: "ما عقل دينه مَن لم يحفظ لسانه" (الإحياء:٣/١٢٠)

وقال بشر بن منصور: "كنا عند أيوب السختياني فلغطنا، وتكلَّمنا، فقال لنا: كُفُّوا... لو أردت أن أخبركم بكل شيء تكلَّمتُ به اليوم لفعلت" (حلية الأولياء:٣/٨)

يروي عبد المنعم بن إدريس عن أبيه أنه قال:
"كان وهب بن منبّه يحفظ كلامه كل يوم، فإن سلم أفطر، وإلا طوى" (السير:٤/٥٤٧)

وهاهو عبد الله بن عون عالم البصرة يقول عنه خارجة بن مصعب:
"صحبت ابن عون أربعاً وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة، وقال سلام بن أبي مطيع: "كان ابن عون أملكهم للسانه"

ويقول الربيع بن خثيم ﷺ: "لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك عن الخير، وتعوُّذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقرائتك القرآن"
(الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٦)

ويقول أبو حيَّان التيمي ﷺ عن أبيه قال:
"ما سمعت الربيع بن خثيم يذكر شيئاً من أمر الدنيا قط"

وقال رياح القيسي ﷺ: قال لي عتبة الغلام:
"يا رياح، إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمتُ، فبئس الناظرُ لها أنا، يا رياح، إن لي موقفًا يُغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول". (صفة الصفوة: ٣/٣٧٢)

وعن الصلت بن بَسْطام التيمي قال: قال لي أبي:
"الزم عبد الملك بن أبْجر، فتعلَّم من توقِّيه في الكلام، فما أعلم بالكوفة أشدَّ تحفُّظاً للسانه منه"
(الصمت لابن أبي الدنيا: رقم٦٣٩)

ويقول عبد الله بن طاووس ﷺ: "كان طاووس ﷺ يتعذَّر طول السكوت، ويقول: "إني جربت لساني فوجدته لئيماً راضِعاً (١)" (الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٨)

(١) راضعاً: *قال ابن الأعرابي* ﷺ: الراضِع والرضيع: الخسيس من الأعراب، الذي إذا نزل به الضيف رضعَ بفيه (بفمه) شاته، لئلا يسمعه الضيف فيطلب اللبن.

يقول أحدهم:

مَن لزم الصمت اكتسى هيبةً ... تخفي على الناس مساويه[1]

لسان مَن يعقل في قلبه ... وقلب مَن يجهل في فيه

(حسن السمت في الصمت للسيوطي:٢٠)

وقال طاووس ﷺ أيضاً: *"لساني سَبُع، إن أرسلتُه أكلني"* (الإحياء: ١٢٠/٣)

وكذا قال بكر بن عبد الله المزني لما سُئل:

"إنك تطيل الصمت؟ فقال: إن لساني سبع إن تركته أكلني".

وعن شيخ من قريش قال: قيل لبعض العلماء:

"إنك تُطيل الصمتَ، فقال: إني رأيتُ لساني سَبُعًا عَقورًا، أخافُ أن أخَلِّيَ عنه فَيَعْقِرني"

(الصمت: صـ٣٠٠ رقم٦٩٩)

وقد قيل: إن اللسان إذا حللت عِقَالَهُ ... ألقاكَ في شنعاءَ ليس تُقال

- وقال بعضهم:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يَلْدَغَنَّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهابُ لقاءه الشجعان

وعن يزيد بن أبي حبيب قال: *"إن المتكلم لينتظر الفتنة، وإن المُنْصِتَ لينتظر الرحمة"*

(جامع بيان العلم وفضله:٥٤٩/١)

ويقول وهب بن منبه ﷺ في "حكمة آل داود":

"حقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظا للسانه، مقبلاً على شانه" (إحياء علوم الدين:١٢٠/٣)

تَحَفَّظْ من لسانك ليس شيء ... أحقَّ بطول سجن من لسان

يقول الحسن بن هاني:

إنما العاقل مَن ... ألجَمَ فاه بلجام

لُذْ[2] بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

(الآداب الشرعية: ص٨٣)

وقد قيل: *"ما نَدِمَ حليمٌ ولا ساكت".*

---

(١) مساويه: عيوبه.

(٢) لُذ: الجأ.

قال وهيب بن الورد:

"بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، والعاشر في عزلة الناس"

وعن سفيان قال: *"طول الصمت مِفتاحُ العبادة"*

وعن محمد بن النضر الحارثي، قال: كان يُقال : *"كثرة الكلام تُذْهِبُ الوقَار"*

(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ ٦٨ رقم ٥٢).

قال الأصمعي رحمه الله: *"قال أعرابي: "السكوت صيانة للسان وستر للعيّ"*

وصدق القائل حيث قال:

سأرفض ما يخاف عليَّ منه ... وأتركُ ما هويتُ لما خشيتُ

لسانُ المرءِ يُنْبي عن حِجَاه ... وعِيُّ المرء يستره السكـوت

وقال بعضهم: *"الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها كان أسيراً في وثاقها".*

وقال ابن القيم رحمه الله:

"والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيكَ صِرْتَ أنت أسيرَه، واللهُ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]. (الجواب الكافي: صـ٢٨١)

وقال بعضهم: *"رأيت مالكًا صامتًا لا يتكلم، ولا يتلفت يمينًا ولا شمالاً، إلا أن يكلمه إنسان فيسمع منه، ثم يجيبه بشيء يسير، فقيل له في ذلك، فقال: وهل يكبُّ الناس في جهنم إلا هذا؟ وأشار إلى لسانه"*

(ترتيب المدارك:١/١٧٠).

ويقول أكثم بن صيفي: *"مقتل الرجل بين فكيه"*[1] **"وكان يقول أيضاً:** *"الصمت يكسب أهله المحبة"*

وقال بعضهم: *"الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه"* (الإحياء:٣/١١١)

يقول جارٌ لضيغم بن مالك: "ما سمعت أبا مالك يذكر من الشِّعْر إلا بيتاً واحداً:

قد يَخْزن الوَرِعُ التقيّ لسانَهُ ... حذَرَ الكلام وإنه لمُفَوَّهُ

(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ٢٢٠)

يقول مالك بن دينار رحمه الله: *"لو كُلِّف الناسُ الصحف؛ لأقلّوا المنطق"*

(١) يعني: لسانه، والفكان: اللحيان.

يقول عمر بن عبد العزيز ﷺ:

"إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقتربوا منه، فإنه يُلَقَّن الحكمة"

وقيل لداود المديني: *"لِمَ لا تتكلَّم: فسكت طويلاً، ثم رفع رأسه، كأنه غائب، فقيل: ألا تتكلم؟ قال: أنتظرُ رسولَ ربِّ العالمين، وأنا مفكِّر في الجواب، فالذي يكون مشغولاً بذلك كيف يقدر أن يتكلم؟!"*

وعن لقمان الحكيم أنه قال لابنه:

"يا بني، مَن يصحب صاحب السوء لم يسلم، ومَن يدخل مدخل السوء يُتَّهَم، ومَن لم يملك لسانه يندم"

وصدق القائل حيث قال:

العلم زينٌ والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتي مرةً ... فلقد ندمتُ على الكلام مرارا

وعن أبي بكر بن عياش قال:

"أدنى نفعِ السكوتِ السلامةُ، وكفى به عافية، وأدنى ضررِ المنطقِ الشهرةُ، وكفى بها بلية"

(سير أعلام النبلاء: ٨/٥٠١).

يقول الشافعي ﷺ:

وجدتُ سكوتي متجراً فَلَزِمتُه ... إذا لم أَجِدْ ربحًا فلستُ بخاسر

وما الصمت إلا في الرجال متاجر ... وتاجره يعلو على كل تاجر

وقال أيضاً ﷺ:

قالوا سكتَّ وقد خوصمتَ قلتُ لهم ... إن الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

وقال مرة رجل: *"ما أشدَّ البرد اليوم"، فالتفت إليه المعافى بن عمران، وقال: "استدفأت الآن؟!، لو سكتَّ لكان خيراً لك"*

(سير أعلام النبلاء: ٩/٢٨٤)

وقال أبو بكر بن محمد بن القاسم:

"كان شيخنا أبو إسحاق الشيرازي إذا أخطأ أحد بين يديه، قال:"أيُّ سكتةٍ فاتتك؟"

(سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٥٥)

وعن إبراهيم ﷺ قال: *"كانوا يجلسون، فأطولهم سكوتاً أفضلهم في أنفسهم"*. (الحلية:٤/٢٢٤)

وعن محارب قال: *"صحبنا القاسم بن عبد الرحمن فغلبنا بثلاث: بكثرة الصلاة، وطول الصمت، وسخاء النفس"*

(الزهد لابن أبي عاصم: صـ ٤٦).

وقيل لرجل:

"بم سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سنا، ولا بأكثركم مالاً؟! فقال: بقوة سلطانه على لسانه"

وحضر ابن المبارك يوماً عند الثوري ﷺ:

"فلم يتكلم بحرف حتى قام، فلما قام، قال الثوري لأصحابه: "وددت أني أقدر أن أكون مثله"

(مقدمة الجرح والتعديل: صـ٢٦).

وقال عبد الله بن أبي زكريا ﷺ: *"عالجتُ الصمتَ ثنتي عشرةَ سنةً، فما بلغت منه ما كنت أرجو"*

(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ ٣٠٣).

وعن مالك عن سعيد بن أبي هند ﷺ قال: *"وجدت الصمت أشدَّ من الكلام".*

(الزهد لابن أبي عاصم: صـ ٣٠ رقم ٣٦)

وعن أرطاة بن المنذر ﷺ قال: *"تعلَّم رجل الصمتَ أربعين سنة، بَحصَاةٍ يضعها في فيه، لا ينزِعها إلا عند طعام، أو شراب، أو نوم"*

(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ ٤٣٥).

قال الإمام مُوَرِّقٌ العِجْلِيُّ: *"تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قَطُّ إذا غضبت أندمُ عليه إذا زال غضبي"*

(سير أعلام النبلاء:٤/٣٥٤).

ويروى أن قيس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه:

"كم وجدت في ابن آدم من العيوب، فقال: هي أكثرُ من أن تُحْصَى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيبٍ، ووجدتُ خصلة إن استعملتها سترتَ العيوبَ كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان"

(الأذكار للإمام النووي ﷺ)

قال مالك بن دينار ﷺ: *"كان الأبرار يتواصون بثلاث، بسجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة"*

(الحلية:٢/٣٧٧)

قال بعض الحكماء: "في الصمت الخير الكثير، وقد اجتمع هذا الخير في سبع كلمات

أولها: أن الصمت عبادة من غير عناء، والثانية: زينة من غير حلي

والثالثة: هيبة من غير سلطان، والرابعة: حصن من غير حائط

والخامسة: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد، والسادسة: راحة الكرام الكاتبين

والسابعة: ستر لعيوبه، كما قيل: "الصمت زين للعالم، وستر للجاهل"

وقال بعض الحكماء أيضاً:

"مَن نطق في غير خير فقد لغا، ومَن نظر في غير اعتبار فقد سها، ومَن سكت في غير فكر فقد لها"

- **ويبقى هنا سؤال: لماذا هذه الأفضلية للصمت؟**

يرجع ذلك لأمرين:-

أ- أنه يُسْتَحبُّ الصمت لكثرة آفات اللسان: من الخطأ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والرياء، والمدح، والنفاق، والفُحش، والمراء، وتزكية النفس، والخوض في الباطل، والخصومة، والتحريف، والزيادة والنقصان، وإيذاء الخلق، وهتك العورات، فهذه آفات كثيرة وهي خفيفة على اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب، ويكفيه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم، ففي الخوض خطر وفى الصمت سلامة. فلذلك عظمت فضيلته مع ما فيه من جمع الهم، ودوام الوقار، والفراغ للفكر والذكر والعبادة، والسلامة من تبعات القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

ب - والأمر الثاني الذي يدل على فضل لزوم الصمت وهو أن الكلام أربعة أقسام:-

(١) . قسم هو ضرر محض. (٢) . قسم هو نفع محض.

(٣) . قسم فيه ضرر ومنفعة. (٤) . قسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي فيه ضرر محض: فلابد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة: فإن درأ المفاسد أولى من جلب المنافع، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر: فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع، وهذا الربع أيضاً فيه خطر إذ قد يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء، والتصنع، وتزكية النفس امتزاجاً يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطراً". (انظر الإحياء:٣/١٢١)

. وكما قيل: *"إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"*

- ***يقول أبو إسحاق الغزازي ﷺ كما في كتاب "الصمت لابن أبي الدنيا"(ص٥٠):***

"كان إبراهيم بن أدهم ﷺ يطيل السكوت، فإذا تكلم ربما انبسط، قال: فأطال ذات يوم السكوت، فقلت: لو تكلمت؟ فقال: الكلام على أربعة وجوه:

فمِن الكلامِ كلامٌ ترجو منفعته، وتخشى عاقبته، والفضل في هذا: السلامة منه

ومِن الكلامِ كلامٌ لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته، فأقلُّ مالك في تركه خِفَّة المؤنة على بدنك ولسانك.

ومِن الكلامِ كلامٌ لا ترجو منفعته، وتأمن عاقبته، فهذا قد كفي العاقلُ مُؤْنته

ومِن الكلامِ كلامٌ ترجو منفعته، وتأمن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره

قال خلف بن تميم: "فقلت لأبي إسحاق: "أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام؟ قال: نعم"

- ***وقد قال الشاعر:***

إن كان يعجبك السكوتُ فإنه ... قد كان يُعْجبُ قبلك الأخيار

ما إن ندمتَ على سكوتٍ مرةً ... فلقد ندمت على الكلام مرارا

إن السكوت سلامةٌ فلربما ... زرع الكلام عداوة وضرار

فكم أثار الكلام من عداوة، وكم أعقب من شقاوة، وكم أفسد من علاقات!

الموازنة بين الصمت والكلام [1]

فليكن الأصل هو الصمت؛ إذ يكفي في فضل الصمت كونه أقوى وسيلة وقائية من الغيبة وأخواتها من آفات اللسان ، والسلامة لا يعدلها شيء إلا مَن تيقن مِنْ حصول الغنيمة بالكلام.

رُوِيَ عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ:

" كلُّ كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذِكْرٌ لله".

(رواه الترمذي وابن ماجه و ضعَّفه الألباني في "ضعيف ابن ماجه")

وقال الإمام النووي رحمه الله: "اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة، فالسُّنَّة الإمساك عنه ؛ لأنه قد ينجرُّ الكلامُ المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة [2] لا يعدلها شيء".

يقول سلمة بن خلف بن إسماعيل رحمه الله: "قلت لسفيان الثوري: "إذا أخذتَ في الحديث نشطتَ وأنكرتك، وإذا كنت في غير الحديث كأنك ميت؟ قال سفيان: "أما علمت أن الكلام فتنة؟!"

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال:

"مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"

وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي ألا يتكلم إلا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحتُه، ومتى شكَّ في ظهور المصلحة فلا يتكلم. اهـ

قال الإمام النووي رحمه الله كما في "شرحه على صحيح مسلم"(٢/١٩):

"ومعنى الحديث: أنه إذا أراد أن يتكلم، فإن كان ما يتكلَّم به خيراً محققاً يثاب عليه واجباً كان أو مندوباً فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأموراً بتركه، مندوباً إلى الإمساك عنه مخافة من إنجراره إلى المُحرَّم أو المكروه. وهذا يقع في العادة كثيراً أو غالباً، **وقد قال تعالى:** ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]".اهـ

---

(١) "بصائر في الفتن" لمحمد بن إسماعيل **المقدم** – حفظه الله- **(ص ٧٣-٧٥).**

(٢) السلامة: هي البراءة من العيوب كما في "القاموس"، وهي من الكلمات الجوامع، فإن مَن سَلِم نجا، فهي قريبة من العافية؛ ولذا تكون دعوة الرسل عند مرور الناس على الصراط: "اللهم، سلِّم سلِّم"، وكان عبد الله بن الخيار يقول في مجلسه: *"اللهم سلِّمنا، وسلِّم المؤمنين منا"* ، *وقال الشاعر:*

وقائلة لي ما لي أراك مجنَّبا ... أمورا وفيها للتجارة مربحُ

فقلت لها: كفِّي ملامكِ واسمعي ... فنحن أناس بالسلامة نفرحُ

وقد قال الإمام الشافعي ﷺ:

"إذا أراد الكلامَ فعليه أن يفكّر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلَّم، وإن شك لا يتكلم حتى تظهر"اهـ

(الأذكار للنووي: صـ ٢٨٤)

وقيل لإياس بن معاوية: *"إنك تكثر الكلام، فقال: أفبصواب أتكلم أم بخطأ؟، قالوا: بصواب، قال: فالإكثار من الصواب أفضل"*

(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ٣٠٣، رقم ٧١٦)

يقول خاقان بن عبد الله ﷺ: *"سمعت ابن المبارك، وقد سُئِل عن قول لقمان لابنه: "إن كان الكلام من فضة، فإن الصمت من ذهب؟ فقال لعبد الله: "لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله ذهب"*

وقال رجل لسلمان الفارسي ﷺ:

"أوصني"، فقال: "لا تتكلم!"، قال: "ما يستطيع مَن عاش في الناس ألا يتكلم"، قال: فإن تكلمتَ فتكلَّم بحق أو اسكت"

(جامع العلوم والحكم: صـ١٦٢)

وكان منصور الفقيه ﷺ يقول: *"عليك السكوت، فإن لم يكن من القول بدٌّ، فقل أحسنه"*

وأنشد ابن المبارك أخاً له كان يصحبه فقال:

واغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغاً مستريحا

وإذا ما هممت بالمنطق الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحا

إن بعض السكوت خير من المنطق ... وإن كنت بالكلام فصيحا

(من ديوان عبد الله بن المبارك)

تنبيه:

البعض يتقرَّبُ إلى الله تعالي بالتزام الصمت، ويظن أنه يتعَبَّدُ إلى الله بهذا الأمر، وهذا خلاف الصحيح، فالإسلام ليس فيه تعبُّد بالصمت قط، إنما إذا مُدِح الصمت، فإنما يمدح الصمت بالنسبة إلى الكلام السيئ، ولذلك لا يشرع التعبُّد بالصمت، ***ويدل على هذا الحديث الذي أخرجه أبو داود عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال:*** **"لا يُتْم بعد احتلام، ولا صِمَاتَ يومٍ إلى الليل"**

(صحيح الجامع:٧٦٠٩)

أي: لا يشرع للإنسان أن يسكت يوماً من الصباح إلى الليل، يتعبَّد بذلك، فهذا غير مشروع، فأين هو من الذكر والتسبيح والاستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد روي في الحديث: "ما من ساعة بمر على ابن آدم لا يذكر الله فيها إلا ندم عليها يوم القيامة"

وفي مجلس الأحنف بن قيس ﷺ اختلف الناس أيهما أفضل الصمت أم الكلام؟ فقال بعضهم:

"الصمت أفضل، وقال البعض الآخر: "بل الكلام أفضل، فقال الأحنف بن قيس: "كلا والله، فإن الكلام الحسن خيرٌ، لأن الصمت لا ينفع إلا صاحبه، أما الكلام الحسن فينتفع به الناس".

فالخلاصة أن الصمت بذاته ليس عبادة كما يظن البعض، فيمسك عن الكلام أياماً، فهذا بخلاف ما جاء به الإسلام، وهذا ما فهمه السلف الكرام، ***فقد قال الربيع بن خثيم ﷺ:*** "لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك عن الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن" **(الصمت لابن أبي الدنيا: صـ٢٤٦)**

اعلم أخي الحبيب... أن في اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطانٌ أخرسٌ، عاصٍ لله ومراء مداهن إذا لم يخف على نفسه.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، والناس بين هذين النوعين، وأهل الوسط – وهم أهل الصراط المستقيم – كفَّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلَّم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال؛ فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به". اهـ

(الداء والدواء لابن القيم ﷺ: ص٢٧٦)

وأختم بوصية النبي ﷺ الجامعة – وقد مرَّت بنا– التي مَن أخذ بها فقد تمت سعادته، وحاز شرف الدنيا والآخرة

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أبي أيوب ﷺ قال:

"جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز، قال: إذا قمت في صلاتك، فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس"

(السلسة الصحيحة:٤٠١)

موعظة:

يا كثيرَ الكلام حسابك شديد، يا مؤثراً ما يضره ما رأيك سديد، يا ناطقًا بما لا يجدي ولا يفيد:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾، أتظن أنك متروك مُهْمَل، أم تحسب أنه يُنْسى ما قد تعمل، أوتعتقد أن الكاتب يغفل، يا قاتلاً نفسه بكفه لا تفعل، يا مَن أجلُه ينتقص ولا يزيد:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]

وجوب حفظ اللسان في زمن الفتن[١]

مرَّ بنا فيما سبق أنه يجب على كل مُكلَّف أن يكفَّ لسانه ويحفظه عن كل باطل، وفى جميع الأوقات والأحوال، بيد أنه يتأكد حفظ اللسان وقت الفتنة، وحلول المحنة؛ ففيها تكثر الأقاويل، وتزداد شهوة الإشاعات والمبالغات والأباطيل، وعندها تكون الآذان مستعدة لاستقبال كل ما يُقَال، وفي هذا تكمن الخطورة، فرُبَّ كلمة أشدُّ من وقع السيف أيام الفتنة.

فلذا؛ يجب على المسلمين قاطبة أن يكفوا ألسنتهم عن كل كلمة تزيد من وَهَج الفتنة.

وقد يحسب المغرور أنه إذا كفَّ يده فقد اعتزل الفتن، ولا يدري أنه لا ينجو منها حتى يكفَّ لسانه أيضاً، وكم من خائضٍ في الفتن متلوث بها بلسانه، وهو يظن أنه ناجٍ منها، وهو من أنشط الساعين فيها، المضرمين نارها.

ومن ثم قال وهيب بن الورد ﷺ: "وجدتُ العزلة في اللسان". **(الصمت لابن أبي الدنيا رقم: ٣٨)**

- ***وعن عبد الله بن المبارك قال: "قال بعضهم في تفسير العزلة:*** "هو أن يكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخُض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت". **(المصدر نفسه: رقم٣٧)**

- ***وعن حذيفة*** ﷺ ***قال:*** "إن الفتنة وُكِّلَتْ بثلاث: بالحادِّ[٢] النِّحْرِير[٣] الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف، وبالخطيب الذي يدعو إليها[٤] وبالسيد[٥]، فأما هذان فتبطحهما لوجوههما ، وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده". **(حلية الأولياء: ١/٢٧٤)**

- ***وعن ابن مسعود*** ﷺ ***أنه قال لما ذُكِرَتْ عنده الفتن وسُئل:***

"أي أهل ذلك الزمان شر؟ قال: "كل خطيب مِسْقَعٍ[٦] وكل راكب مُوضِع[٧] " **(انظر شرح السنة:١٥/١٦).**

---

(١) "بصائر في الفتن" لمحمد بن إسماعيل المقدم – حفظه الله– بتصرف واختصار.
(٢) الحادُّ: النشيط القوى القلب أو الطائش.
(٣) النِّحْرِيرُ: العالم الحاذق في عمله، ومراده: أن مثل هذا المتهور لا رجاء له في النجاة؛ لأنه يفكر بسيفه.
(٤) وهذا كسابقه صاحب سيف ، لكن سيفه لسانه.
(٥) لأن الفتنة امتحانٌ له.
(٦) الخطيب المسقع والمصْقَع: البليغ، أو مَن لا يُرْتَجُ عليه في كلامه ولا يتتعتع، وإنما قال ابن مسعود ﷺ ذلك؛ لأن الأول محرِّضٌ على الفتنة بلسانه، والآخرَ بسنانه، فاجتمع الشرَّان: شر القول، وشر العمل.
(٧) والراكب الموضع في الفتنة: المُسْرِعُ فيها.

• والنصوص التالية تُجَسِّدُ لنا خطورة وَقْعِ اللسان في الفتن:

فقد أخرج أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"تكون فتنة تَسْتَنْظِفُ[1] العرب، قتلاها في النار[2]، اللسان فيها أشدُّ[3] من وقع السيف".

(صححه أحمد شاكر – رحمه الله – في "تحقيق المسند" (١١/١٧٠) و(ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه: رقم٣١٩)

– وأخرج أبو داود بسند فيه مقال عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"ستكون فتنة صَمَّاء بكْمَاءُ عَمْيَاء[4]، مَن أشرف لها اسْتَشْرَفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف"

(ضعيف أبي داود: رقم ٩١٧)

– وأخرج ابن ماجه بسند فيه مقال عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيف" (ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه: رقم٨٦٠).

وصدق القائل: وجُرح السيف تُدْمِلُه فيبرا ... وجُرحُ الدهر ما جَرَحَ اللسانُ

جراحاتُ الطِّعان لها التئامٌ ... ولا يلتأمُ ما جَرَحَ اللسانُ[5]

– وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال:

"بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكروا الفتنة – أو ذُكِرت عنده – فقال: "إذا رأيتم الناس قد مَرِجَتْ عهودُهم، وخَفَّت أماناتهم وكانوا هكذا – وشبَّك بين أصابعه – قال: فقمتُ إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: الزم بيتك، واملكْ عليك لسانك، وخُذْ بما تعرف، ودَعْ ما تُنكِر، وعليك بأمر خاصةِ نفسك، ودَع عنك أمر العامة". (الصحيحة: رقم ٢٠٥)

---

(١) تستنظف العرب: أي: تستوعبهم هلاكاً، يقال: استنظفتَ الشيء، إذا أخذته كلَّه، ومنه قولهم: استنظفت الخراج، ولا يقال: نَظَّفْتَهُ.(كما في "النهاية":٥/٧٩). *وقال القاري:* "أي: تطهرهم من الأرذال وأهل الفتن" (نقله في تحفة الأحوذي:٦/٤٠٢).

(٢) *قال القاضي ﷺ:* "المراد "بقتلاها": من قُتل في تلك الفتنة، وإنما هم من أهلِ النار؛ لأنهم ما قصدوا بتلك المقاتلة والخروج إليها إعلاء دين أو دفع ظالم أو إعانة محق، وإنما كان قصدهم التباغي والتشاجر طمعاً في المال والملك.

(٣) اللسان فيها أشد: أي: وقعه وطعنه على تقدير مضاف، ويدل عليه رواية: "إشراف اللسان" أي: إطلاقه وإطالته أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضرب به أثَّر في واحد، واللسان تضرب به في تلك الحالة ألف نسمة" (كما في تحفة الأحوذي:٦/٤٠٣).
قال القرطبي ﷺ: "قوله: "اللسان فيها أشد من وقع السيف" أي: بالكذب عند أئمة الجور، ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها".اهـ (التذكرة:٢/٢٤٩).
ونقل المناوي عن القاضي ابن العربي قوله: "وجه كونه أشد: أن السيف إذا ضرب ضربةً واحدةً مضت، واللسان يضرب به في تلك الحالة الواحدة ألف نسمة، ثم هذا يحتمل أنه إخبار عمَّا وقع من الحروب بين الصدر الأول، ويحتمل أنه سيكون، وكيفما كان فإنه من معجزاته؛ لأنه إخبار عن غيب".اهـ (فيض القدير:٤/١٠١).

(٤) وصف الفتنة بأوصاف أصحابها: أي: يعمي الناس فيها، فلا يرون منها مخرجاً، ويصمون عن استماع الحق.

(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقي: صـ٣٨١

تورع السلف عن آفات اللسان في الفتن

- ***قال طارق بن شهاب:*** "كان بين خالد وسعد كلام، فذهب رجل يقع في خالدٍ عند سعد، فقال: مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا". **(حلية الأولياء:١/٩٤)**

- ***وسمع عمَّار بن ياسر ﷺ رجلاً ينال من أم المؤمنين عائشة ﷺ فقال له:***
"اسكُتْ مقبوحاً منبوحاً، فأشهد أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة"،

- ***وفي رواية:*** "اغرب مقبوحاً أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ؟! **(أخرجه ابن عساكر، وابن سعد:٨/٦٥)**

- ***وقال ثابت البناني:*** "إن مُطَرِّفَ بن عبد الله قال: "لبثتُ في فتنة ابن الزبير تسعاً أو سبعة ما أُخْبِرتُ فيها بخبر، ولا استخبرت فيها عن خبر".

- ***عن أبي راشد قال:*** "جاء رجلٌ من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إني رسول إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يُقرءونك السلام، ويسألونك عن أمر هذين الرجلين: علي وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال: هل غير؟، قال: لا، قال: جَهِّزوا الرجل، فلما فُرِغ من جهازه، قال: اقرأ عليهم السلام، وأخبرهم أن قولي فيهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]

(العزلة للخطابي: ص ٤١)

- ***وعن شريك قال:*** "سألت إبراهيم بن أدهم عمَّا كان بين عليّ ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه، فقال: "إنه مَن عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومَن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره"

(حلية الأولياء: ٨/١٥)

- ***وقال الشافعي ﷺ: "قيل لعمر بن عبد العزيز:*** "ما تقول في أهل صِفِّين؟، قال: تلك دماء طهَّر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها" **(العزلة للخطابي: صـ٤١)**

- ***وعن الهيثم بن عبيد الصيدلاني قال:***
"سمع ابن سيرين رجلاً يَسُبُّ الحجاج، فقال: مه أيها الرجل! إنك لو وافيت الآخرة كان أصغر ذنب عملته قطُّ أعظم عليك من أعظم ذنبٍ عمله الحجَّاج، واعلم أن الله ﷻ حَكَمٌ عدْلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه شيئاً فشيئاً، أخذ للحجاج ممَّن ظلمه، فلا تشغلنَّ نفسك بسبِّ أحدٍ" **(شعب الإيمان: ٥/٢٨٧)**

رُبَّ قولٍ يسيل منه دم

لا ينحصر شؤم إطلاق اللسان في الفتن على الوقعية والفرقة فقط، بل ربما يتعدَّى الأمر حتى يصل إلى سفك الدماء، وكثير من الفتن تُبْذَر بذرتها في مجالس الغيبة والوقعية، ولا يتوقع أصحابها أن تبلغ ما بلغت، وإذا بها تشتعل وتضطرم رويداً رويداً حتى يستعصي إطفاؤها حتى على الذين أوقدوا شرارتها، فهؤلاء الغيابون أكلة لحوم البشر هم من الذين ***وصفهم رسول الله ﷺ فقال:*** **"إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمَن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويلٌ لمَن جعل الله مفاتيح الشر على يديه".**

(أخرجه ابن ماجه وحسَّنه الألباني بطرقه في الصحيحة:١٣٣٢)

خَلِّ جنبيك لرامِ ... وامضِ عنه بسلامِ
مُتْ بداءِ الصمتِ ... خيرٌ لك من داء الكلام
رُبما استُفْتِح بالقول ... مغاليقُ الحِمامِ
رُبَّ قولٍ ساقَ ... آجالَ فِئامٍ وفِئامِ
إنما السالم مَن ... ألجم فاه بلجَامِ

- **وهاك هذه الشواهد التاريخية التي تدل على أنه "رُبَّ قولٍ يسيل منه دمٌ"**

قال أبو معبد عبد الله بن عكيم الجهني – تابعي جليل – في خطبة له:

"لا أعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان، فقال رجل متعجباً: يا أبا معبد، أَوَأَعَنْتَ على دمه؟، ***فقال أبو معبد:*** "إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عوناً على دمه" **(الطبقات لأبي سعد:٣٠/٨٠)**

– وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"إن العبد ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم"**

فهؤلاء الساعون بالوشاية والنميمة، أحصوا اجتهادات أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وصوَّروها بحسب ما تتخيل عقولهم الضعيفة، وقلوبهم المريضة، فاتخذوا ذلك سُلَّماً إلى الفتنة، وحين علم حذيفة رضي الله عنه بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: " اللهم العن قَتَلَتَهُ وشُتَّامَه، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا، فاتخذوا ذلك سُلَّماً إلى الفتنة، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف". **(الكامل لابن الأثير)**

وأخرج البخاري عن ابن عمر ﷺ أنه قال:

"فلما تفرَّق الناس خطب معاوية فقال: "مَن كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليُطْلع لنا قَرْنَهُ فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته، قال عبد الله ابن عمر: فحللت حُبْوَتي وهممتُ أن أقول: أحَقُّ بهذا الأمرِ منك مَن قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيتُ أن أقول كلمة تُفَرِّقُ بين الجمع وتسفك الدم، ويحمل عني غير ذلك، فذكرتُ ما أعدَّ الله في الجنان ، فقال الحبيب بن مسلمة لابن عمر ﷺ: "حُفِظْتَ وعُصِمْتَ"

- قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري – وكلاهما من التابعين-:

"يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب ابن أبي صفرة إلا أنه عاون بلسانه، ورضي بقلبه، فقال الحسن: "يا ابن أخي كم يد عقرت الناقة؟" قلت: "يد واحدة"، قال: "أليس قد هلك القوم جميعاً برضاهم وتماليهم؟!" **(الزهد للإمام أحمد: ص٢٨٩)**

- عن رشيد الخبَّاز قال: "خرجت مع مولاي إلى مكة، فجاورنا، فلما كان ذات يوم، جاء إنسان فقال لسفيان: "يا أبا عبد الله، قدم اليوم حسنٌ وعليّ ابنا صالح"، قال: "وأين هما؟" قال: "في الطواف"، قال: "إذا مرَّا فأرينهما، فمرَّ أحدهما"، فقلت: "هذا عليّ"، ومرَّ الآخر، فقلت: "هذا حسن"، فقال: "أما الأول فصاحب آخرة، وأما الآخرُ فصاحب سيف لا يملأ جوفه شيء"، قال: "فيقوم إليه رجل ممَّن كان معنا، فأخبر علياً، ثم مضى مولاي إلى عليّ يسلم عليه، وجاء سفيان يُسلِّم عليه"، فقال له عليّ: "يا أبا عبد الله، ما حملك على أن ذكرت أخي أمس بما ذكرته؟ ما يُؤمنك أن تبلغ هذه الكلمة ابن أبي جعفر، فيبعث إليه، فيقتله؟!"، فنظرت إلى سفيان وهو يقول: "أستغفر الله، وجادتا عيناه"

(سير أعلام النبلاء:٣٦٦/٧)

- وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: "كنا مع رجاء بن حَيْوَة فتذاكرنا شكر النعم، فقال: "ما أحدٌ يقوم بشكر نعمة، وخلفنا رجل على رأسه كساء"، فقال: "ولا أمير المؤمنين؟"، فقلنا: "وما ذِكْرُ أمير المؤمنين هنا؟! وإنما هو رجل من الناس"، قال: "فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يره"، فقال: "أُتيتم من صاحب الكساء، فإن دعيتم، فاستُحْلِفتم، فاحلفوا"، قال: "فما علمنا إلا بحَرَسِي قد أقبل عليه [(١)]"، قال: "هيه يا رجاء، يُذكَر أمير المؤمنين فلا تحتج له؟!"، قال: "فقلت: "وما ذاك يا أمير المؤمنين؟"، قال: "ذكرتم شكر النعم، فقلتم: "ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: "ولا أمير المؤمنين؟!، فقلت: "أمير المؤمنين رجل من الناس! فقلت: "لم يكن ذلك، قال: "آلله، قلت: "آلله، قال: "فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطاً، فخرجت وهو متلوث بدمه"، فقال: "هذا وأنت رجاء ابن حَيْوَة، قلت: "سبعين سوطاً في ظهرك خير من دم مؤمن"، قال ابن جابر: "فكان رجاء بن حَيْوَة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلَقَّتُ: "احذروا صاحب الكساء" **(سير أعلام النبلاء: ٥٦١/٤)**

(١) يبدو أن في هذا الموضع سقطاً ولعله: "فاصطحبه، وأدخله على أمير المؤمنين".

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله ﷻ أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان علي إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم .....

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك